جنات الحمام

الشمس والريح

مكتبة الإمام الشافعي

الشمس والريح

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطّبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مكتبة الإمام الشافعي
ص. ب ٢١٨٧ ـ الرياض ١١٤٥١
السعودية ـ هاتف ٤١١٨١١٢

الشمس والريح

حنا لحام

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ

[النمل] (٥٩)

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ

إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

[البقرة] (١٢٧)

المقدّمة

كم كان يؤلمني أن الإنسان ينتهي عندما يبدأ بالنضج . . . كالثمرة تقطف عندما تنضج . . .

ولكن كما تتحول الثمرة الناضجة إلى غذاء للآخرين . . .

فإن الاستفادة من حكمة الناضجين الذين سبقونا . . تعزينا . .

ليتنا فهمنا ذلك عندما كنا ندرج في أول الطريق . . .

إذاً لاختصرنا على أنفسنا كثيراً من آلام الطريق . .

فهل يتجنب الجيل القادم غفلتنا هذه . . ؟

قد نموت قبل أن نصل إلى ما نريد . .

ولكن يرضينا أن نكون درجة يرتقي عليها من يأتي بعدنا . .

كما يقول مالك بن نبي :

في عصر النهضة والصعود . . . كل جيل يأتي أفضل ممن سبقه .

حنان لحام

٢ رمضان ١٤٠٦ هـ

الشمس والريح

كانت أسماء ترقب جدتها وهي تتلقف حفيدتها الصغيرة عزة بين ذراعيها فتقبلها وتمسح على شعرها مواسية وهي تقول:

- ولم كل هذا البكاء يا حبيبتي..؟! فتشهق الطفلة قائلة:

- إنه كريم.. لقد رفض أن يلعب معي.. ولما ألححت عليه انتزع مني لعبتي ولن يعيدها إلي لأنني أزعجته.. وعادت عزة إلى البكاء. فحملتها الجدة إلى حضنها وقالت بحنان وهي تمسح دموع الطفلة:

- لا تبكِ يا حبيبتي.. أعدك بأن أقنع كريماً بالصلح معك.. والآن ألا تريدين أن أقص عليك حكاية المساء؟

ابتسمت أسماء وهي تتأمل الوجهين الحبيبين الطافحين بأجمل المعاني.. وجه جدتها الذي نورته الحكمة والتقوى.. ووجه أختها عزة - طفلة البيت المدللة - يشع براءة وطهراً وقد نسيت بكاءها وأقبلت على جدتها بلهفة لتسمع الحكاية...

استرخت أسماء في مقعدها تتابع المشهد اللطيف أمامها.. وقد وجدت فيه ما يسري عنها بعض توترها.. وكيف لا تتوتر وهي تترقب نتائج الامتحان النصفي غداً.. ما أعذب الطفولة وما أحلى أيامها..

- يحكى أن الرياح التقت يوماً مع الشمس فتطاولت عليها بقوتها وسخرت من سكونها ووداعتها قائلة:

- إنك ضعيفة عاجزة.. أين أنت من قوتي وجبروتي.. إنني أزمجر فأملأ القلوب رعباً.. وأهبُّ فأقتلع الأشجار وأطفىء النيران وأغرق السفن وأهدد البيوت بالدمار.. الجميع يخشون بطشي.. والكل يهاب ثورتي..

قالت الشمس:

- رويداً أيتها الريح ولا يأخذنك الغرور كل مأخذ.. ولا تتسرعي في الحكم. فإنني أملك سلاحاً أقوى من كل جبروتك..

تعجبت الريح وسألت:

- وما هو هذا السلاح..؟!

إنه الوداعة..

- وماذا يمكن أن تفعل الوداعة..؟!

- هل تحبين أن ندخل في رهان تجرب فيه كل واحدة منا قوتها..؟

ـ بكل تأكيد . .

ـ حسنٌ . انظري إلى هذا الرجل المتدثر بمعطفه . . هل تستطيعين أن تنتزعي عنه رداءه . . ؟

ـ ما أسهل هذا الامتحان . . ! !

ـ لا بأس . سأغيب أنا . . وابدئي فجربي قوتك . .

غابت الشمس وهبت الريح شديدة . . فتمسك الرجل بمعطفه يشده إليه ويتشبث به . . وبذلت الريح جهدها فزمجرت وعصفت فلم يزده ذلك إلا تمسكاً بردائه . .

أطلت الشمس بوجهها الباسم وأرسلت أشعتها الوهاجة الوادعة فملأت الجو دفئاً وضياء . أحس الرجل بوهج الحر فخلع رداءه . . وهكذا انتصرت الشمس بالوداعة والرفق وحققت ما لم تحققه الريح بالقوة والجبروت . . والآن يا عزة : ما رأيك في أن نجرب الرفق والوداعة في التفاهم مع أخيك كريم . . ؟ قفزت عزة من حضن جدتها وأمسكت بيدها قائلة :

ـ هيا بنا أرجوك . .

وانطلقت أسماء في تأملاتها . . تذكرت قراءاتها في تاريخ توينبي عندما كانت تستغل أوقات الفراغ في مكتبة المدرسة . . باحثة في بطون المراجع التي تشير إليها الكتب الدراسية أو المدرسات . إن توينبي يخرج من جولته في رحاب التاريخ بكلمات رائعة . . منها : أن الوداعة تنتصر

في النهاية على القوة.. ألم تسلط الدولة الرومانية سيفها على تلامذة المسيح واستمر دعاة المسيحية ينشرون دعوتهم بالحب والوداعة.. واستمرت قوافل الشهداء تتساقط جيلاً بعد جيل حتى أعلن الحاكم الروماني قسطنطين دخوله في النصرانية.. [فانتصرت روح الاستشهاد المسيحية في النهاية على سيف الحاكم الروماني].. لو تعلمين يا جدتي أن حكايتك قد لخصت تجارب البشرية..

ولكن.. هل ينفع الرفق والوداعة في كل حال..؟! وانطلقت في أفكارها إلى الجو المدرسي الذي تعيشه. إنها ستحصل على الشهادة الثانوية في هذا العام وتودع المدرسة إلى الجامعة.. وبرغم هذه الخبرة الطويلة بالأجواء المدرسية والتعامل مع الزميلات.. لكنها تشعر في هذا العام ببعض الأسىٰ والإحباط.. فزميلتها سلمى تتخذ منها موقفاً شنيعاً لم يسبق لها أن تعرضت لمثله في الأعوام السابقة.. سلمى برغم ذكائها وتفوقها في الدراسة لكنها تحمل أفكاراً (تقدمية) ـ كما يقولون ـ. مسكينة.. قد يكون لها عذر فقد نشأت في بيئة تحتقر الدين وتشمئز من المتمسكين به.. فهي تظن الدين رجعية وتخلفاً وجموداً في التفكير.. وخاصة في قضايا المرأة التي أشكلت والتبست في عالمنا، فلم تعد تعرف فيه الصورة الحقيقية للمرأة المسلمة.. كل هذا يمكن توقعه من البنات في المدرسة..

أمـا أن تتخذ سلمى مـوقف الاستعلاء ورفض الحـوار مـع أسـماء. . فهو مـا يحز في نفسهـا. بـل إن الأمـر تـطور إلى حقـد وكـراهيـة تنبعث من نـظراتهـا إن حـدث وتـلاقت العيـون ببعضها. . ولعـل ذلك مبعثـه الشعور بـأن أسـماء تنـافسهـا في التفـوق والحصـول عـلى الـدرجـة الأولى في الفصـل. . إن سلمى لا تستـطيـع أن تتصـور كيف يتسنى لمثل هذه الفتاة الرجعية أن تنافسهـا وتقف معها على قـدم المساواة. . !!

ولقـد حاولت أسـماء أن تتجاهـل كـل هـذا. . واجهت المـوقف بـالصبـر والأنـاة، ومـدت يـداً متـرعـة بـالـود والتعـاون. . فلم يزد ذلـك سلمى إلا إعراضـاً وحقـداً. . بـل قد بلغ بهـا الأمر أن سعت إلى الإدارة ورفعت تقـريراً ضـد أسماء بـأنها توزع منشـورات رجعية محـظورة، وتفسد عقـول البنـات وتـدعـوهن إلى تكتـلات حـزبيـة. . ولـولا حكمة المديرة وحرصهـا على التثبت في القضيـة، ومعرفتهـا بحسن سلوك أسماء طيلة السنوات المـاضية لمـا انتهى الأمر بسـلام. . فلقـد تبـين للمـديـرة ـ بعـد التحقيق ـ أن المنشورات (المحظورة) التي أعارتها أسـماء لإحدى زميـلاتها إنما هي رسالة مبسطة في كيفية أداء الصلاة طلبتهـا الزميلة من أسماء. . !!

ولقد خلفت الحادثة ندبـة في قلب أسماء. . ذاك القلب

الـذي لم يـكن يـعـرف إلا الحب والـرفـق . . حـتى أنها أصـبحـت تتـسـاءل : أحقـاً يـنـتصر الحـب والـرفـق في النهـايـة . . ؟! شعـرت أسـماء ـ حـين ذكـرت كـل هـذا ـ بتـوهـج واتقـاد في رأسهـا وجسمهـا كله ، فـالتفت بـدثـار وخرجت إلى الحديقة تستنشق أنفاساً من برد الشتاء .

كـان الـظلام رقيقـاً . . فـالسـماء تحتشـد بغيـوم بيضـاء تنحسر بـين لحـظة وأخـرى عن طلعـة البـدر البهيـة . . فيـومض كالأمـل الذي يلتمـع فجأة ثم يختفي . . والـريح تعبث بـأوراق الشجر اليـابسة التي تمـلا الأرض فتـذروهـا وتهشمهـا . . لكن أشجار المشمش تنتصب عـاريـة جـرداء بأغصانها المتفرعة . . وكـأنها أكف معروقـة ضارعـة ترتفـع نحو السماء راجية عطاء جديداً وربيعاً مخضلاً مورقاً . .

ارتجف قلب أسـماء خشـوعـاً . . وانثـالت الـدمـوع من عينيهـا ورفعت كفّيها نحـو السماء . . أرادت أن تـدعـو . . لكن الكلمات حائرة قاصرة ، لا تفي بالغرض .

مـاذا تقـول أيهـا القلب لـربٍّ يعلم كـل خلجـاتـك وسكناتك . . ؟! تمتمت : رضيت بالله رباً . .

* * *

في ظهـر اليوم التـالي هرع أهـل البيت لاستقبال أسـماء التي دخلت تهتف بجذل :

ـ السلام عليكم أيها الأحبة.. ابتسمت أم عمر وهي ترى ورقة العلامات بيد ابنتها مرفقة بهدية ملفوفة بأناقة. وضمت أسماء إلى صدرها وهمست من بين دموعها:

ـ بارك الله فيك يا بنتي وجعلك من الأوائل في الدنيا والآخرة.

هلل الجميع:

ـ الحمد لله.. الأولى.. مبروك..

قالت الأم بسرور:

ـ لقد أعددت لكم مائدة شهية احتفالاً بهذه المناسبة. فقد كنت أعرف أن الله سيوفق أسماء ويعطيها الدرجة الأولى دون زميلتها سلمى. هيا يا أسماء تعالي وحدثيني بتفاصيل احتفالكم المدرسي ريثما يعود أبوك من عمله.

ـ دقائق وأعود إليك يا أمي.

انطلقت أسماء إلى غرفتها فسجدت لله شاكرة.. ولم تطق أمها صبراً فلحقت بها.. ولم يفتها أن تلاحظ سحابة من الحزن كانت تتماوج في عيني ابنتها.. أمسكتها برفق ونظرت في عينيها قائلة:

ـ ما الأمر..؟!

تحدّرت دمعتان من مقلتي أسماء.. فسحبتها أمها إلى صدرها وقالت بلهفة:

ـ ولم الدموع يا حبيبتي؟!..

ـ أماه.. لا أستطيع أن أحتمل نظرات الحقد.. أنا لم أفعل شيئاً لسلمى فلماذا تحقد عليّ بهذا الشكل..؟ لم أفكر في إيذائها مرة برغم ما فعلت بي حتى الآن.. لو رأيتها اليوم عند توزيع النتائج.. ما إن أعلنت المديرة عن حيازتي للدرجة الأولى حتى اصفرَّ وجهها وارتجفت يداها.. وعلى الرغم من أن المديرة ذكرت اسمها بعدي مباشرة وأثنت عليها وقالت بأن الفارق بسيط بيننا لا يتعدى ثلاث علامات... وقدمت لها هدية أيضاً.. لكنها وجَّهت إليّ نظرات تقطر سماً.. وبعد ذلك حاولت أن أقترب منها مهنئة وأخترق جدار الحقد في قلبها لكنها شمخت بأنفها وأعرضت عني.. أماه لقد جعلتني بموقفها أشعر بالمرارة وأنا في أوج تفوقي..

تريثت الأم حتى هدأت ثائرة ابنتها ومسحت صدرها بحنان وقالت:

ـ احمدي الله يا بنتي ولا تسمحي للحقد أن يلوث قلبك الطاهر واذكري وقفتنا بين يدي الله في ذلك اليوم العصيب ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.. إن قلبك السليم هو أعظم ثروة تمتلكينها فاحرصي عليها وأشفقي على من حُرِم منها.. إن الذي يتغذى بالحقد إنسان بائس لا ينام إلا على بركة من الدم.. أولئك الذين في قلوبهم مرض.. فلا يقر لهم قرار.. ولا يهدأ لهم بال..

كانت أسماء تتأمل وجه أمها الذي ينضح بالصفاء والحب.. أحست بأن النور يكتسح كل ظلام في نفسها.. تمتمت: ـ ليتني أستطيع أن أقدم لهم الدواء..

* * *

تحلقت الأسرة حول المائدة وهي تتناقل عبارات التهنئة في جو بهيج.. وأسماء تقص عليهم تفاصيل الحفل المدرسي.. وتتلقى التعليقات الفكهة من أخيها عمر خاصة.. فهو يصغرها بعام.. وبرغم الصداقة العميقة بينهما.. إلا أنه لا يحب أن تكون أسماء موضع اهتمام الجميع.. فلا بد أن تصدر عنه بعض التحرشات والدعابات التي كانت تضفي على الجو مزيداً من الحيوية والمرح..

وحين انتهت الأسرة من طعامها.. قال الوالد:

ـ ما قصتك يا أسماء..؟ إنك لم تطلعيني حتى الآن على ورقة العلامات..؟!

ـ لم أرد أن أصرفك عن طعامك.. أما الآن فهي تحت تصرفك.. واطمئن. إنك لن تجد الفرصة لتعاتبني على تقصير في أي مادة.. حتى مادة الجغرافيا التي كنت لا أميل إليها.. تصور يا والدي العزيز.. لقد نجحت في عقد الصلح معها..

ضحك أبو عمر وهو يتناول نظارته من جيبه ويثبتها على عينيه . . وأخذ يمعن النظر في المواد وعلامة كل واحدة منها ويبتسم برضى . . ووصل إلى المجموع العام . . فنظر فيه برهة . . واكتسى وجهه بشيء من الجد . . والتفت إلى أسماء سائلاً :

ـ هل قمت بجمع العلامات؟

قالت بتعجب :

ـ لم يخطر لي أن أفعل ذلك . . ولِمَ؟!

أخرج من جيبه ورقة وقلماً وأعاد عملية الجمع . . رفع رأسه بعد حين ونظر إلى أسماء بهدوء :

ـ هناك خطأ في عملية الجمع . .

ـ غير معقول . . !!

واختطفت من يده الورقة . . فجمعت ودققت . . ووجمت . . وتساءل الجميع فجاء الجواب :

ـ المجموع الحقيقي أقل بخمس علامات .

قال عمر :

ـ لست الأولى يا أسماء . . مع الأسف . فاندفعت الجدة قائلة :

ـ لا تقل هذا . . إن أسماء متفوقة دائماً .

ـ ولكن زميلتها سلمى أصبحت الآن تسبقها بعلامتين . .

ـ إن الله أراد أن يظهر أسماء متفوقة حتى تكون هي القدوة.

كانت أسماء واجمة ساكنة.. ربتت الأم على كتف ابنتها وقالت:

ـ أتحزنين من أجل علامتين يا عزيزتي..؟!

ـ بل أفكر ماذا أفعل..؟!

أسرع عمر وقد أخذته الحمية لأخته فقال:

ـ ماذا تفعلين..؟! طبعاً إنك لن تفعلي شيئاً لإنسانة خذلها الله لأنها تكيد لدينه وتتعالى على عباده..!!

نظرت أسماء إليه باستغراب.. فتابع كلامه:

ـ إن بقاءك في مركز الأولى له أثر كبير في نفوس البنات.. بل والمعلمات وجهاز الإدارة.. إنك تمثلين عقيدة وفكرة سامية.. وإن بقاءك في مركز التفوق والصدارة هو أحسن أسلوب للدعوة إليها..!

ـ ولو بالكذب والتزييف..؟!

ـ هم الذين وقعوا في هذا الخطأ.. فلستِ المسؤولة..

ـ لا يا عمر.. لا أستطيع أن أرتقي على صرح من التزييف والخداع.. إنني أرفض الميكيافيلية..

ـ يا سبحان الله.. نعمة من الله ترفضينها..؟!

ـ بل هو امتحان جديد من الله..

ـ هل نسيت ما فعلت بك سلمى هذه..؟!

ترى لو كانت هي في مكانك.. كيف تتصرف..؟!

سكتت أسماء برهة. فأجابت الجدة:

ـ لو حصل هذا مع سلمى لكتمت الأمر وكأن شيئاً لم يكن...

وهنا تدخل الوالد:

﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة]

سكن الجميع بإجلال أمام قول الله تعالى..

نظرت أسماء إلى أمها في رجاء وقالت:

ـ أماه.. أسمعيني صوتك فإنه لي خير معين.. فقالت الأم بحرارة:

ـ نخطىء كثيراً حين نستوحي تصرفاتنا من تصرفات الآخرين.. فلئن استباح الطرف الآخر لنفسه الغش والخداع فهل نحذو حذوه..؟! وأي ميزة لنا عليه إذن؟! **إننا إن لم نتفوق عليهم بأخلاقنا واستقامتنا.. ضيعنا مبادئنا وكنا وإياهم سواء..**

أنسيت يا عمر أن عمر الفاروق كان يوصي جيوش

المسلمين بقوله: كونوا أخوف من ذنوبكم منكم من عدوكم.. فإنكم إن لم تغلبوهم بالتقوى غلبوكم بكثرتهم وعُدَدِهم..

إن من لا يقدر على الانتصار على نفسه.. كيف يتطلع إلى النصر على الآخرين..؟!

إن من يعجز عن تمثل مبادىء دينه.. لا يمكن له أن يدعو الآخرين إليه..

* * *

توجهت أسماء في الصباح التالي إلى المدرسة بنفس منشرحة راضية تحمد الله على أن وفقها في الانتصار على نفسها ونبذ مشاعر الكره والانتقام من قلبها.. حقاً لقد كان هذا الامتحان أشد من الامتحان المدرسي. وتوجهت إلى الإدارة مستأذنة بالدخول..

وهناك التقت بسلمى ووالدها يتحدث إلى المديرة محتداً ومحتجاً على نتيجة ابنته.. متهماً بعض المدرسات بالتحيز ضد ابنته.. وبعض الطالبات بالغش لاختلاس التفوق من ابنته. كان الامتعاض ظاهراً على وجه المديرة.. وترددت أسماء.. أيكون من المناسب أن تكشف الحقيقة في مثل هذا الجو..؟! وقطع ترددها سؤال المديرة لها عن حاجتها.. تقدمت أسماء فوضعت ورقة العلامات أمام المديرة وقالت بأدب:

ـ سيدتي . . أرجو مراجعة جمع العلامات في ورقتي . . فقد وجدتها تزيد عن الحقيقة بخمس علامات . .

ظهرت الدهشة على وجه المديرة . . ثم أخذت تدقق في العلامات وتقوم بجمعها على الآلة الحاسبة . . بينما امتدت يد أسماء إلى حقيبتها وأخرجت الهدية التي قدمت لها كجائزة فوضعتها على مكتب المديرة .

رفعت المديرة رأسها باستغراب ونظرت إلى أسماء بإكبار قائلة :

ـ أنت على حق يا بنتي .

نهضت من مقعدها وتقدمت من أسماء وصافحتها بحرارة :

ـ أهنئك من كل قلبي . . وأعتز بك طالبة وابنة في مدرستي . والتفتت إلى والد سلمى برأس مرفوع وقالت :

ـ سيد جلال يسرني أن ترى بنفسك وبمحض المصادفة أنموذجاً من بناتي اللواتي أعتز بهن في هذه المدرسة .

انعقد لسان الرجل ولم يحر جواباً . أما سلمى فقد أذهلتها المفاجأة . تابعت المديرة وهي تنظر إلى سلمى نظرات ذات مغزى :

ـ أما أنت يا سلمى فأعتذر لك عن هذا الخطأ الذي حصل وأهنئك بالحصول على الدرجة الأولى . . وأرجو لك التفوق في كل مجالات الخير . .

شعرت أسماء بمدى الارتباك الذي هيمن على

سلمى . . فاقتربت منها بسكينة وابتسمت بوداعة . . ومدت يدها مصافحة :

ـ أهنئك على التفوق وأرجو لك كل خير.

وانسحبت من الغرفة مستأذنة . . خرجت وقلبها مفعم بالسكينة والرضى، فقد أعادت الحق إلى نصابه . . وانتصرت على نفسها . . وأرضت ربها وارتاح ضميرها . .

ـ أسماء . . انتظري أرجوك . .

التفتت . . فإذا بسلمى تجري نحوها لاهثة . . كانت الدموع في عينيها . . والكلام يتلعثم على شفتيها . . مدت يدها بجائزة الدرجة الأولى قائلة :

ـ أرجوك أن تسامحيني وتقبلي هذه الهدية مني تذكار محبة وصداقة .

لم تستطع أسماء أن تحبس ينبوع التأثر الذي فاض من عينيها وهي ترى الحواجز تنهار وأبواب القلوب تفتح أمامها على مصراعيها . . سجد قلبها خشوعاً وهو يردد :

ـ إنه الفتح المبين . . إنه قانونك يا رب . . إنه الدواء والعلاج الذي أرشدتنا إليه .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

[فصلت].

من ذِكريات الحَجّ

هتف والدي بصوت متهدج:

ـ ها قد وصلنا إلى عرفات.. ويا قلبي قد نلت مناكَ.. فكيف تؤدي حق الشكر لبارئك الذي أكرمك وفتح لك السبل والأبواب..؟!

وقفنا في عرفة.. «لبيك اللهم لبيك»...

هتاف يخلع عنَ القلب كل تطلع دنيوي ويحيي النفوس بعد موتها وينزع عنها آصارها..

هاهي ذي أفواج المسلمين تتدفق وتتلاحق..

أكثر من مليون إنسان من شتى العروق والألوان يجتمعون في تلاحم أخوي فذّ في هذا المكان. أي حاكم وأي سلطان يستطيع استنفار مثل هذه الحشود لتشهد هذا الموقف تحت سماء لافحة.. وعلى رمضاء حارقة..؟!

يجتمعون لا لتحصيل رزق أو متاع أو لهو أو استمتاع بشيء من أعراض الدنيا.. بل إنهم قد بذلوا ما

يستطيعون من جهد ومال وجاؤوا شعثاً غبراً يجأرون إلى الله.. لا يطمحون إلا إلى رضاه..

تأججت الشمس في كبد السماء.. وتململت رَفيقاتي في الخيمة لاهثات متهالكات على الماء يشربن وينضحن به رؤوسهن.

اهتزت إحداهن باكية ضارعة إلى الله:

ـ رباه.. هذا يوم من أيام الدنيا.. فكيف بيوم قُلْتَ فيه

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين].

تلك ساعات وتمر.. فكيف بيوم مقداره خمسين ألف سنة..؟!

والشمس في كبد السماء.. فكيف بيوم تُدْنَى فيه حتى تكون منا كمقدار ميل؟!

وذاك عرق يتفصد منا.. فكيف به إن فاض فأغرقنا وألجمنا..؟!

ونحن في ظل وظلال.. فكيف بنا يوم لا ظل إلا ظلك..؟!

نحن في يوم نتراحم ونتعاون فيه.. فكيف بيوم يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه..

۞ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ [عبس].

إلهي.. هذا ضعفنا في يوم لا حساب فيه.. فكيف بنا في يوم الفصل حين نسمع قرارك:

۞ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ [الصافات]

إلهي.. نحن اليوم في ستر.. قد جهد كل منا في ستر سيئاته والتجمل للناس.. فكيف بنا حين نفتضح يوم العرض..

۞ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ [الحاقة].

وخنقتها العبرات فلم تقوَ على المتابعة.. وغرق الجميع في سكون خاشع..

قلت:

۞ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ... ﴿٢٨﴾ [الحج].

تلك هي إحدى المنافع.. تمحيص النفوس وتطهيرها من الدنس والخبث.. كما يفتن الذهب على النار.. فكيف بنا لو استثمرنا هذا المؤتمر الإسلامي السنوي في بحث مشكلات المسلمين ووضع المناهج العملية للنهوض بهم؟!

* * *

سألتني من كانت تجلس في جواري :

ـ هل صليت العشاء داخل المسجد النبوي؟!

ـ وكيف أستطيع ذلك؟ لقد وصلنا إلى مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبيل العشاء.. وأدركنا الصلاة مع الصفوف المتراصة التي كانت تملأ الشوارع المحيطة بالمسجد.. ألا ترين يا أختاه كيف تتحول المدينة كلها في موسم الحج إلى مسجد..؟!

تنهدت محدثتي وغامت عيناها بالدموع وقالت:

ـ أمة محمد ﷺ بخير..

لم أدر ما أقول.. فقد ذكرت حديث القصعة وقول رسول الله ﷺ «بل أنتم كثير.. ولكنكم غثاء كغثاء السيل».. كيف تكون أمة محمد بخير وهي تؤكل وتجلد في كل مكان..؟ يا ربَ هذا الغثاء الحبيب.. رد المسلمين إلى مستوى خير أمة أخرجت للناس..

تململ والدي في مقعده وقال:

ـ عسى أن لا يطول انتظارنا..

كنا نجلس في صالة فندق مجاور للحرم المدني ننتظر غرفة وعدنا بها صاحب النزل بعد إلحاح منا قائلاً:

ـ لحسن حظكم أبلغني أحد النزلاء الآن أنه سيغادر غرفته بعد قليل فانتظروا..

كان التعب قد أخذ منا كل مأخذ.. خاصة والدي.. فالحج يحتاج إلى جلد الشباب واقتداره.. وكم كنت أخشى أن لا تحتمل صحته القيام بالمناسك على وجهها ولكن الله سلم وأعان على الأداء.. لكننا لم نسرح وانطلقنا بعد الحج مباشرة إلى المدينة تحاشياً للازدحام الشديد في مكة.. وكان سفرنا بالسيارة مرهقاً حتى غدا الوصول إلى الفراش أقصى أحلامنا..

وتذرعت بالصبر.. ورحت أقطع الوقت بتأمل أفواج الحجاج الداخلين والخارجين من النزل.. والذين يتحركون في الشارع على مرمى البصر عبر الواجهة الزجاجية للفندق. منظر عجيب متناسق برغم تنوع الأجناس والألوان والألسنة. حتى خيل إليّ وكأنهم يمشون على إيقاع واحد.. هذه جماعة من الأندونيسيات بملابس الصلاة الناصعة.. وجوه تفيض بالطيبة والتواضع.. والدماثة وخفض الجناح.. معنا نحن العرب خاصة وكأنهم يشعرون بأن لنا مكانة خاصة وكأننا أهل النبي وعشيرته.. وأصحاب القرآن وحَمَلَتُه.. فوا أسفاه.. وواخجلتاه.. اقتربت مني امرأة كبيرة في السن، بيضاء يتألق وجهها الباسم بوضاءة الإيمان وربتت على كتفي بحنان سائلة:

ـ «أنتَ شام..؟» فأومأت بالإيجاب. فأخذت تمسح بيديها على صدري وظهري وكأنها تتبرك بي وتردد

بشغف: شام شريف. لم أتمالك دموعي وأنا أتذكر كيف مشينا وراء ثعلب الصحراء لورنس لنغدر بإخواننا الأتراك ونقاتلهم مخدوعين بسراب الأماني ومعسول الكلام.. وبعد ذلك تقولين لي يا أختاه: شام شريف؟! هل نسيت غدرنا بالخلافة.. ومشاركتنا بالإجهاز على (الرجل المريض)..؟!

التفتتْ إليّ جارتي مرة أخرى:

ـ كيف كان حجكم؟

ـ الحمد لله ميسراً.. ونسأل الله حسن القبول..

ـ الحمد لله الذي أعاننا.. وإن كنت قد تعبت من المبيت في الخيمة في منى.. لقد قالوا لي إنه لا بد من المبيت فيها.. أحقاً هذا..؟.

ـ طبعاً..

ـ سبحان الله.. كثير من أعمال الحج لا يدرك الإنسان مغزاها.

ـ الأصل في العبادة الطاعة سواء فهمنا المغزى أم لم نفهمه.. لكن المتأمل لا بد أن تنكشف له أشياء..

هل لديكِ أولاد يا أختي؟

تهلل وجه جارتي وهي تذكر أولادها:

ـ لدي ذكور وإناث.. عسى الله أن يوفقهم..

ـ لا شك أنهم يتعلمون في المدارس..؟

ـ وهم متفوقون.. وقد كبروا ولله الحمد فأصغرهم في المرحلة الإعدادية..

ـ وقد اشتركوا في المعسكرات التي تفرض على المرحلة الثانوية؟

ـ طبعاً لا بد من ذلك.. وكم كنت أحمل همهم وأتخوف عليهم من مشقة المعسكرات.. لكنهم كانوا يعودون سعداء وقد ازدادوا حيوية ونشاطاً.. ويحملون أجمل الذكريات عن تلك الأيام التي قضوها في حياة جماعية بعيدة عن رتابة الحياة البيتية الناعمة حافلة بالتجدد.

ـ إن نظام المعسكرات متبع في معظم الدول.. لأنه ضرورة اجتماعية يتحقق فيه بناء الشخصية القوية جسماً وأخلاقاً.. ويتدرب الناس فيه على القيام بالأعمال الجماعية المنظمة.. هذا إذا تجاوزنا بعض الأخطاء التي تحدث في تطبيقه من قبل المسؤولين.

كنت أرى بعض الاستغراب في عيني محدثتي. وما لبثت أن سألتني:

ـ ولكن.. ما الذي جاء بنا إلى هذا الكلام؟!

ابتسمتُ قائلة:

ـ كنا نتحدث عن الحج.. ذاك المعسكر الرباني

السنوي الذي فرضه الله على الجميع ذكوراً وإناثاً شباباً وشيوخاً.. معسكر مدته أربعة أو خمسة أيام ما بين منى وعرفات.. يخرج منه المسلم وقد تطهر من ذنوبه وأدرانه وأنانيته وفرديته وكبريائه وغفلته وخموله.. ذاك معسكر قد فرضه الله على الناس ـ قبل أن يدركوا قيمة المعسكرات ـ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات..

كان وجه جارتي طافحاً بالتأثر وقالت بانفعال:

ـ الله أكبر.. يا له من معسكر فذ..!! وأي دولة تستطيع أن تقيم مثل هذا المعسكر الذي يتلهف الناس على الاشتراك فيه والالتزام بقوانينه..؟! ولكن آه.. لو يتعلم المسلمون شيئاً من النظافة..

قطع علينا صاحب النزل حوارنا.. منادياً أحد الخدم ليقودنا إلى الغرفة التي فرغت لتوها.. فقمنا مسرعين وحملنا أمتعتنا بنشاط من أيقن بقرب الفرج.. قادنا الخادم الحبشي عبر المصعد والممر حتى بلغ بنا الغرفة المنشودة. وتنفسنا الصعداء ونحن نضع أمتعتنا على أرضها ونمني النفس بلقيا الفراش.. لكن الخادم هتف بنا بلكنته:

« ـ انتظر. هذا وسخ.. غرفة وسخ.. »

التفتنا إليه فإذا به ينظر إلى المنضدة التي تناثرت عليها بقايا الطعام باشمئزاز ويشير إلى السرير المشعث

باستنكار. . ويهز رأسه مستهجناً:

ـ هذا وسِخ. . (انتظر بره). .

كانت الغرفة تبدو نظيفة جداً إذا قيست بما رأينا وعانينا من نظافة الناس في منى وعرفات. . وكنا على استعداد لغض النظر عن كل شيء مقابل الخلود إلى الراحة. . ولكن الخادم استنكر علينا ذوقنا المنحرف وأبى إلا أن يرضي ذوقه وضميره في إعداد الغرفة. . وما أسرع ما جاء بعدته وأخذ يضرب بها يميناً وشمالاً ويروح ويجيء بقميصه ومئزره بخفة ونشاط ممعناً في الإتقان غير عابىء بتذمرنا. . ولم تفارقه نظرة الانزعاج التي ارتسمت على وجهه الأسمر منذ أن صافح نظره مشهد الغرفة. .

وأخيراً توقف وألقى نظرة عامة فيها شيء من الرضى على الغرفة. . وأسرعنا إلى الأسِرّة وقد ظننا أن الأمر قد انتهى. . لكن الخادم الهمام. . دخل إلى الحمام. . وأخذ يعمل فيه مقشته وفرشاته. . ويسفح الماء. . ويملأ الدلاء. . وقمت إليه أستعطفه. . لكن توسلاتي لم تسمع وسط هذا الضجيج. . وانطلق يجلو الجدران بهمة وإخلاص مستعيناً بالمطهرات والمنظفات. . وعدت إلى فراشي مستسلمة فوجدت والدي يضحك ملياً. وقال:

ـ سبحان الله. . لم أكن أتصور أن تصبح النظافة مصدر بلاء. .

وإذ لم يُجدنا التذمر شيئاً.. أخذنا في الضحك عند كل ضربة مقشة وسفحة ماء.. إلى أن غلبنا النوم ورحنا في سبات عميق.

* * *

ترانيم ملائكية كانت تؤرجحني وتعيدني إلى وعيي تدريجياً.. فتحت عيني ونظرت فيما حولي.. وتذكرت أين أنا.. نظرت في الساعة.. إنه وقت السحر.. صوت عذب خاشع يترنم بترتيل القرآن:

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ [الذاريات].

شدتني الآيات من فراشي.. فتوضأت وانطلقت أجوب الآفاق مع ترتيل القارىء..

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ [الذاريات].

تحرك والدي في سريره.. ورفع رأسه نحوي قائلاً:

- هل حان وقت الفجر؟

ـ قد اقترب.

ـ حسناً لا بد من الإسراع حتى نجد مكاناً في الحرم.. جزى الله هذا القارىء كل خير على إيقاظنا.

خرجنا من الغرفة قاصدين الحرم.. كان القارىء يجلس في الردهة يتابع ترتيله.. مررنا به فألقى عليه والدي السلام.. أغلق القارىء مصحفه ورفع رأسه برد التحية.. ثم استوى قائماً.. وابتسم لنا قائلاً:

ـ كيف كانت ليلتكم؟

وقفنا مدهوشين أمام لكنته.. ومكثنا برهة نتأمله.. إنه الخادم الحبشي نفسه.. لكنه يتألق في جلبابه الفضفاض الأنيق.. ويغطي رأسه بعمامة منسقة بعناية.. هتف والدي به:

ـ أهذا أنت؟! اتسعت ابتسامة الخادم وقال:

ـ هيا يا حاج.. صلاة.. صلاة..

وتَقَدَّمنا مسرعاً لا يلوي على شيء.. التفت إليّ والدي دهشاً:

ـ أي خادم فذ هذا؟! وأية أمة تستطيع أن تأتي بمثله..؟!

إن ديناً يشيد مثل هذا البناء لعظيم..!!

عُصفور من دمشق

لصلاة الفجر رحيق خاص في بيتنا. . . فالعصافير تشاركنا التسبيح والتهليل وهي تستقبل صباحاً ربيعياً بدأ يتألق مداعباً أوراق الشجر الفتية بنسماته اللطيفة في حديقة بيتنا.

كان زوجي يرتشف قهوة الصباح وهو يتابع المشهد الأخاذ عبر زجاج الغرفة. . وسكنت في مقعدي وأرهفت سمعي، وقلبي يخفق متجاوباً مع ترتيلها. . لكن الصوت بدا صاخباً أكثر من المعتاد. . أجنحة تخفق بقوة وتصطدم بجدار. . نظر إليّ زوجي متسائلاً:

ـ أتسمعين؟!

ـ أجل. .

وأصخنا السمع من جديد. . ضربات جناح يناضل، وزقزقة ملهوفة تنطلق بإلحاح. . انطلق زوجي إلى الحديقة باحثاً منقِّباً. . لعل عصفوراً وقع في قبضة هرة، أو طائراً صغيراً سقط من عشه فعجز عن الطيران. . لكنه عاد يقول:

ـ لا شيء في الحديقة..

وأصغى من جديد.. ما زال الطائر يضرب بجناحيه ويهتف مستغيثاً.. قلت:

ـ يبدو لي أن الصوت ينطلق من الغرفة.

ـ أجل..

وأخذ زوجي يخطو بتمهل محاولاً أن يتتبع الصوت.. إلى أن وجد نفسه في مواجهة الجدار.. وقف يتثبت.. أجل الصوت من هنا.. رفع رأسه إلى الأعلى.. وأشار بيده إلى فتحة المدخنة المغطاة بإحكام بغطاء من القصدير والتفت إليّ قائلاً:

ـ هل عرفت ماذا حصل..؟ يبدو أن عصفوراً صغيراً سقط من عشه فوق المدخنة في أعلى البناء.. وهو الآن داخل تجويف المدخنة في الجدار.. يحاول أن يطير ليخرج.. لكن الارتفاع أكبر من قدرة جناحيه..

هتفت بلهفة:

ـ يا إلهي.. كيف يمكن أن نساعده..؟!

ـ سنحاول..

قرب زوجي منضدة، ورقي عليها وفتح غطاء المدخنة.. أصبح الصوت جلياً أكثر.. ازدادت ضربات الأجنحة وعلا صوت الزقزقة المستغيثة.. قلت:

ـ ولكن تجويف المدخنة يمتد إلى أسفل الجدار. . أتظن أن بإمكانه أن يصعد هذه المسافة؟

ـ إن ضربات أجنحته تدل على أنه أكبر مما ظننت. . وقد ساعدناه باختصار المسافة ولن يكف عن المحاولة. .

وهنا دخلت بناتي الثلاث مستفسرات عن سر هذه الجلبة في الصباح. . وكم المهن خبر هذا العصفور. . خاصة ابنتي الصغرى التي كانت في ربيعها الثامن. . فقد تمسكت بي وأخذت تسألني بإلحاح:

ـ أهو صغير يا أماه. .؟ إن أمه الآن تبكي عليه. . هل سيتمكن من الخروج. .؟ أم أن جناحيه الجميلين سيتحطمان. . ثم يموت من الجوع والعطش. .؟

وحاولت أن أهدىء من روعها بقدر الإمكان. . ثم هتف بهن زوجي ناظراً إلى ساعته:

ـ هيا يا بنات قد اقترب موعد المدرسة. . وإن العصفور لن يخرج وأنتنَّ له بالمرصاد، إنه سيخاف منكن. .

وأمسك بيد الصغيرة يطمئنها ملاطفاً: . .

ـ تعالي نتناول الإفطار. . ثم يخرج كل منا إلى عمله. . وعندما تعودين في الظهيرة ستجدين أن العصفور قد خرج وطار إلى أمه وأبيه. .

عـادت البسمة والـرضى إلى وجـه الصغيـرة وهي تنـظر إلى أبيهـا بثقة. . وانـطلقَتْ معـه. . وبعـد قليـل خـرجنـا جميعـاً من البـيت. . زوجـي إلى عمـله. . والبنـات إلى مـدارسهن. . وكـانت لـديَّ بعض الأعمـال الضـروريـة خارج البيت فلم أتمكن من العودة إلا قبيل عودتهم بقليـل فـأسـرعت بـإعـداد طعـام الغـذاء. . وجمعتنـا المـائـدة من جديد. فسألتني الصغيرة:

ـ هل خرج العصفور يا أماه. . ؟

قلت:

ـ لم أعد أسمع صوته. . فلعله خـرج. . سنتفقده بعـد الطعام. .

وعنـدما وقفنـا عند فتحـة المـدخنـة نستمـع. . غشيتنـا سحابة من الألم وغـامت عينا الصغيـرة بقطرات طـاهرة. . ما زال الجناحـان يضربـان بشكل واهن متقـطع. . وأصبح واضحـاً أن قـوة العصفـور قـد بـدأت تتـلاشى وأمله بـدأ يخبو. . أحطت الصغيرة بذراعي وقلت:

ـ لن يفيـد البكـاء يـا عـزيـزتي. . ولنفكـر في طـريقـة نساعد بها العصفور.

وخيم الصمت علينـا. . وعيون الفتيـات تنتقـل بحيـرة بـين فتحة المـدخنـة وبيني. . انـطلقت ابنتي الـوسـطى ثم عادت وبيدها حفنة من القمح المجروش. . صعـدت فوق

المنضدة وأفرغت يدها في فتحة المدخنة.. نظرت إلينا بحزن وقالت:

ـ ولكن كيف نسقيه ماءً..؟!

قلت بتقدير:

ـ حسناً فعلت.. فلعل هذا يعطيه قوة على النضال من جديد.

قالت الكبرى:

ـ ولكن المشكلة لم تحل.. ولا بد من إعمال الفكر..

ومضى وقت وأنا أحاول التسرية عن البنات.. قصصت عليهن قصة جلال الدين الرومي ذلك التاجر الذي كان لديه ببغاء، يضعه في قفص ويكرمه ويحرص عليه.. لكن الببغاء كان يبدو حزيناً.. وفي يوم من الأيام أزمع التاجر على السفر في تجارة له فسأل أفراد أسرته أن يطلب كل واحد منهم حاجة يأتيه بها عند عودته.. ثم سأل الببغاء.. فطلب منه أن يذهب إلى عشيرته من الببغاوات ويسأل كبيرها: كيف يمكن أن يتحرر من الأسر؟ وعاد التاجر بعد سفر طويل وقد جلب معه الهدايا التي طلبها أفراد الأسرة.. وجاء دور الببغاء فسأل صاحبه: هل أتيتني بالجواب؟ قال التاجر بحزن:

ـ لم أقصر في طلب ما أردتَ.. ولكنني عندما سألت

الطائر عن مرادك نظر إليّ ثم سقط ميتاً فتألمت كثيراً لأن قصتي تسببت له في ذلك: ـ

ما إن سمع الببغاء كلام صاحبه حتى صاح وسقط على أرض القفص ميتاً.. تأوه التاجر:

ـ واحسرتاه.. لقد مات طائري أيضاً..

وفتح القفص وتناول الببغاء بيد حانية متألمة وألقى عليه نظرة الوداع.. ثم وضعه على الأرض ليدفنه.. وإذا بالطائر يرفرف بجناحيه ويقف على غصن شجرة منتشياً بحريته قائلاً لصاحبه:

ـ أشكرك يا سيدي.. لقد علمني ذاك الطائر كيف أحصل على حريتي.

دارت الساعات ثقيلة متهالكة.. وأوشك النهار أن ينتهي.. لم يعد يسمع للطائر أي حفيف.. هتفت الصغيرة بجزع:

ـ هل مات العصفور يا أمي؟

قلت مهدئة:

ـ بل لعله نام ليستعيد قواه..

قالت الكبرى:

ـ ما رأيكم في أن ندلي له حبلاً..؟ ألا يستطيع أن يرتقي عليه؟

قلت: ـ ليس من طبيعة الطيور أن ترتقي على الحبال.. ولكنها تعيش على الأغصان.

لمعت عينا فتاتي الكبرى وقالت:

ـ لِمَ لا ندلي له غصن شجرة..؟!

فكرت قليلاً وقلت:

ـ قد يفيد هذا.. ولكننا بحاجة إلى غصن طويل بقدر ارتفاع فتحة المدخنة عن الأرض.. ويجب أن يتصف بشيء من المرونة مع بعض الفروع الصغيرة على جانبيه تساعد العصفور على الارتكاز..

وهرعنا إلى الحديقة نبحث عن طلبتنا.. الأشجار شامخة بجذوعها وفروعها القوية.. لكن شجرة الياسمين كانت تستند بدلال على سور الحديقة في حلّتها الخضراء النضرة.. وكأنها تنظر إلينا بعيونها البيضاء الطاهرة في تساؤل: هل تحتاجون إليّ..؟!

أجل أيتها العزيزة.. إن أغصانك الطويلة المتدلية في نعومة هي خير ما يفي بالغرض. سامحيني أيتها الغالية.. فليس من السهل على نفسي أن أقتطع عضواً منك.. ولكنك ستسعدين بتضحيتك.. وسيطوف بك العصفور شاكراً مناغياً..

قطع زوجي الغصن وأدخله في الفتحة رويداً رويداً..

حتى اصطدم بالأرض وبرز جزء بسيط منه متدليا من الفتحة بأوراقه اليانعة الصغيرة.. وانتظرنا.. وطال بنا الانتظار.. ولم تصدر من الفتحة أية حركة.. وانقلبت الفتيات كاسفات إلى أسِرَّتهنَّ.. بعد كتابة واجباتهن المدرسية على مضض. وغلبهن النعاس بعد لأي..

أشرق فجر جديد. وانطلقت أغاريد الطيور توقظ النائمين.. قم أيها الإنسان ما أشد غفلتك..!! قم فتأمل قدرة ربك الذي أقسم بالصبح إذا تنفس.. قم لتشهد تسبيح الجمال وتدفق الحياة.. في هذه اللحظات التي يقدم فيها الكون صلاته لربه مترعة بالبهجة والطرب..

ـ أماه.. العصفور.. لقد خرج.. إنه يحوم في غرفتنا..

كانت الكلمات تنطلق جذلى من فم الصغيرة وهي تركض نحوي في ثياب الصلاة البيضاء كملاك صغير.. أسرعت معها وزقزقة العصفور تملا أذني.. والبنات يتحاورن بفرح:

ـ لقد حلمت بأنه قد خرج وهو يدور في الغرفة..

ـ لم يكن هذا حلماً.. بل إنني صحوت مع الفجر على حفيف جناحيه يبحث عن مخرج..

كان العصفور مرتاعاً منا يتجه إلى النافذة المغلقة

فيرتطم بزجاجها . . فيرتد إلى جهة أخرى . . اقتربت من النافذة ففتحتها له . . . لكنه هرب مني إلى غرفة أخرى . . وتبعناه وهو يحلق ويدور تحت سقف الغرفة ويرتطم بالنوافذ . . هتفت الصغيرة :

- يريد أن يخرج . . لكنه لا يعرف كيف يخرج . . !! قالت الوسطى :

- سيهلك نفسه هكذا . . !!

قلت :

- اهدأن في أماكنكن حتى لا تزدن من خوفه .

وقال زوجي :

- أغلقن الباب حتى لا يخرج من الغرفة .

كان العصفور يضرب النافذة بجناحيه . . اقتربت منه بهدوء . . فنظر إليّ بخوف واستعطاف . . لا تخف أيها المخلوق الوديع سأساعدك . . وفتحت النافذة برفق فغمرتني نسمات الصباح الربيعي المنعشة . . وأدرك العصفور أن باب الحرية قد فتح ، فانطلق إلى الخارج لا يلوي على شيء . . . وخيل إليّ أنني أسمع تهليل العصافير يختلط بتهليل بناتي . . قالت صغيرتي :

- ما أروع العصافير . . لكنها لا تعرف كيف تخلص نفسها . .

ابتسم زوجي قائلاً : يحكى أن سمكات ثلاث خَرجن

يتنزهن ويبحثن عن طعام فرأين شبكة الصياد تمتد في عرض البحر. . قالت الأولى والثانية:

ـ ما هذه الغلالة الرائعة. . ؟! لا بد أن بداخلها أشياء ثمينة ولطيفة. . وأخذت السمكتان تحومان حول الشبكة حتى وجدتا منفذاً فدخلتا إليها. وبعد برهة من التجول دون جدوى اكتشفتا أنهما وقعتا في الفخ. . فأما الأولى فأخذت تضرب جدائل الشبكة بجسمها حتى خارت قواها. . وأما الثانية فانطلقت تبحث عن مخرج حتى وجدت خرقاً فخرجت منه سالمة. .

هتفت صغيرتي:

ـ والسمكة الثالثة ما فعلت يا أبي؟

ـ الثالثة لم تتعجل في الدخول، لكنها فكرت وتأملت فرأت أن اللواتي يدخلن لا يخرجن فعرفت أن الشبكة فخ صياد فانصرفت عنها. . ما رأيكن. . ؟

اندفعت ابنتي الوسطى قائلة:

ـ لقد قرأت أن ابن المقفع ضرب بهذه القصة مثلاً على أصناف ثلاثة من الناس: **العاجز الذي يقع في المأزق ولا يعرف كيف يخرج. والكيِّس الذي إذا وقع عرف كيف يخرج. . والأكيس منه الذي يبتعد عن المأزق فلا يقع فيه. .**

قالت الكبرى بعد تفكير:

ـ كنا بالأمس نناقش في المدرسة موضوعاً أحس له الآن مذاقاً جديداً.. فقد طرحت مشكلة تخلف المرأة على بساط البحث.. وانبرت الفتيات المقلدات للغرب للحديث، وقلن بأن المرأة لن تتخلص من التخلف والهوان في عالمنا حتى تتحرر من الدين والتقاليد وتنطلق في طريق الغرب.

ضحك زوجي قائلاً:

ـ إنهن يحاولن إغراء المرأة بالدخول إلى الشبكة.

قلت:

ـ قالت لي إحداهن: إن دعاة الانحراف هؤلاء يجب سحقهم بالأقدام قبل أن يخربوا كيان الأمة.. وإن الشباب المؤمن عليه أن يقوم بتصفية جسدية لدعاة الجاهلية..

تنهد زوجي بأسى وقال:

ـ كثيرون يتصورون أن الخلاص كامن في الإجهاز على الشياطين. وينسون قول الله تعالى للشيطان:

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

[الحجر].

إنهم يحاولون المستحيل.. ويرتطمون - كعصفورنا - بالجدران والنوافذ المغلقة.. قالت الكبرى بتأمل:

- السمكة لا تعرف كيف تخرج من المأزق.. والعصفور يريد أن يخرج وينطلق إلى الأجواء العليا.. لكنه لا يعرف كيف.. فيكاد يهلك نفسه..

أيتها العصافير الطيبة.. كم توفرين على نفسك وعلى من حولك من المآسي والآلام لو بحثت عن الطريق الصحيح وتعلمت فتح الأبواب والمنافذ..؟!

* * *

حوار عن الحماة

زارتني بعض الجارات مرة يباركن لي في زواج ابنتي ويؤنسنني بعد سفرها، ودار بيننا حوار ظريف.. بدأته إحداهن بسؤال ضاحك وجهته إليّ:

ـ ما شعورك الآن بعد أن زوجت ابنتك وأصبحت حماة.؟!

ضحكت وتملصت من الموقف بتحويل السؤال إلى كبرى الجارات:

ـ لا أزال حديثة عهد بهذه التجربة، ولعل الخالة أم خلدون أقدر منّا على وصف مثل هذه المواقف فقد زوجت أولادها جميعاً.. فتجربتها عريقة.. ومشاعرها متبلورة..

توجهت العيون إلى الوجه الوقور الطيب وقد استنار ببسمة لطيفة:

ـ حقاً إنها لتجارب حلوة مرة..!!

تنهدت أم خلدون وقد بدأت سحابة من الأسى تغزو وجهها وهي تسترجع الذكرى:

- وزواج الأخيرة كان أصعبها.. لقد وجدتني صبيحة زفافها تائهة بين جدران البيت، الذي هدأ فجأة من كل حركة.. أدور بين الغرف أبحث عنهم.. أفتح الدواليب والخزائن.. فأجدها خاوية من ملابسهم وحاجاتهم.. أحقاً قد ذهبوا جميعاً..؟! مع من سأشرب القهوة؟ ولماذا أحضر الشاي؟! ماذا أطهو؟ بل لماذا ولمن سأطهو الطعام..؟!

أي معنى للصباح طالما أنني لن أدور عليهم وأوقظهم: هذا إلى وظيفته وهذه إلى جامعتها..؟!

أي معنى للظهيرة أو المساء طالما أنني لن أجلس في انتظار عودتهم أتلقى تحيتهم وأخبار يومهم وأحمل عنهم همومهم..؟! ووجدتني أهتف باكية:

- يا إلهي.. قلبي هذا لمن سأعطيه..؟!

واحتبست الكلمات في فم أم خلدون وأطلقت العنان لدموعها.. وسكتنا جميعاً وقد غلبنا التأثر.. تكلمت إحداهنَّ بود:

- هوني عليك يا خالة.. فهذه سنة الكون.. ونحن جميعاً بناتك.. ونستمتع بقلبك الكبير وحنانك.. فأنت في كل يوم تتفقدين أحوالنا فتساعدين هذه.. وتؤنسين

تلك.. لقد أعطيتنا من قلبك حتى شعرنا أننا في حاجة دائمة إلى حنانك وحكمتك.. ألا ترين أننا نسارع إليك في كل ما يسرنا ويسوءنا؟

فأنت الصدر الحنون الذي نحب أن يشاركنا في كل شيء..

ـ أجل يا عزيزتي. لقد أعانني الله في التغلب على محنتي تلك.. ففتحت قلبي لمن حولي.. وقررت أن أملأ فراغي بالحب والعطاء على قدر استطاعتي. وعندها فقط وجدت السكينة.

قالت إحدى الجارات:

ـ أعتقد أننا أمسكنا طرف الخيط في مشكلة الحماة، فإن أشد ما يؤلم الأم: أن تحمل وترضع وتربي ابنها أو ابنتها قريباً من عشرين عاماً.. تمرض مع المريض وتسهر الليالي تحمل همَّ هذا ومشكلة ذاك.. تؤثرهم باللقمة الشهية والنومة الهنية، وتنسى نفسها وتذوب في أفراحهم وأتراحهم.. وتشعر أنها قد بلغت كل مناها عند زواجهم.. فإذا بالابن ينصرف مع زوجته.. والفتاة تطير من بين يديها إلى عند زوجها.. وتمر الأيام فإذا بالابن ـ أو الابنة ـ يذوب في عالمه الجديد فلا يسأل عن أمه إلا لماماً ولا يلتفت إلى أبويه إلا عند الحاجة.. أليس من

الطبيعي أن تغتاظ الأم وتشعر بالعداء نحو من انتزع منها فلذات أكبادها. . ؟!

علَّقت جارة أخرى:

ـ والأم بالذات تعاني أكثر من الأب في هذا الأمر. . لأن الأب غالباً مشغول بعمله وصِلاته الخارجية. أما الأم فكأنها ـ في مجتمعنا بالذات ـ قد أعطت معظم كيانها لأولادها. . ولهذا عُرِفَت مشكلة الحماة.

ـ لكن الأم المؤمنة يمكن أن تتجاوز هذه المحنة باستمرارها في خط العطاء ونكران الذات فهي إنما كانت تتعب وتعطي لله تعالى، وأولادها لا يزالون ـ بعد زواجهم ـ بحاجة إلى عطائها. . خاصة إذا استطاعت أن تنظر إلى الأمر من زاوية أخرى: وهي أنها لم تخسر ابنها أو ابنتها. . بل قد تضاعف عدد أبنائها وبناتها. . وسيأتي الأحفاد بعد ذلك فيملؤون عليها حياتها هناء. .

اعترضت إحداهن:

ـ لكن الجيل الجديد من أبنائنا يتصرف بأسلوب يجعل جيل الأمهات يشعر بإحساس مرير يفقد الحياة معناها. . وإن أصعب شيء على الانسان أن يحس أنه أنهى دوره، ولم يعد أحد بحاجة إليه. . عندها يلح عليه كابوس مؤلم. . إنه عالة على الآخرين. . لا يتوقعون منه نفعاً. . فهو يجتر الموت البطيء.

أجابت أخرى:

ـ ألا ترين أن الارتقاء الطبيعي للحياة يقتضي من الجيل الجديد أن يتصرف ويربي بشكل أفضل مما فعل الجيل السابق.. ؟ فكيف ترتقي الحياة إذا تقيدنا بمفاهيم الآباء وأساليبهم.. ؟!

ـ هذا صحيح.. ولكننا لا نستطيع أن نلغي تماماً خبرات الجيل السابق ولا بد من اختزال خبرات السابقين للأخذ بأصلحها ثم نضيف المزيد..

ـ ولكن لماذا يتوقف نمو الأمهات؟ ألا يمكن أن يتابع الآباء تطور الحياة إلى الأفضل ويحاولوا استيعاب المعارف والأساليب الجديدة.. ؟!

ـ أرى أننا انتقلنا بالمشكلة إلى مستوى أزمة يعاني منها مجتمعنا.. حيث لا توجد المؤسسات التي تساعد الكبار على تنمية أفكارهم وتطويرها وتوظيف طاقاتهم.

ـ ولماذا نقذف بالمشكلة دائماً من دائرة ما أستطيع إلى دائرة واجبات الآخرين؟! فلماذا لا تحاول الأمهات متابعة النمو الفكري واستثمار ما لديهن من طاقة وفراغ في أعمال اجتماعية وفكرية.. ؟ إن الأم يمكن أن تتجاوز كثيراً من المواقف الصعبة بعد زواج أبنائها برفع مستوى فهمها وإدراكها للقضايا.. يكفي أنها تستطيع أن تدرك

حقيقة مشاعرها وتستعلي عليها.. بينما تنساق الأم الجاهلة بغير شعور فتقف بالمرصاد لصهرها وزوجة ابنها.. تتصيد الهفوات وتجسِّمُ الزلّات لتصنع منها مآسي تزعزع كيان الأسرة.

- أرى أن الأمر يتعلق بالمثل الأعلى الذي ضيعناه في عالمنا.. فلقد أصبح الأبناء هم كل شيء في حياة الأم.. لهم تحيا ومن أجلهم تشقى.. فمن الطبيعي أن تصدم بقوة حين ينصرف كل منهم إلى بناء حياته الخاصة.. وهذا جزاء من يعطي الأولوية لأبنائه.. ألم يحذرنا الله من مغبة ذلك بقوله سبحانه:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة].

إن الإنسان لا يتذوق حلاوة الإيمان وسكينته حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.. وشتان بين من كانت حياته لأبنائه ومن يحيا لله تعالى.. إن من يحيا لله لا تنضب ينابيع المحبة والعطاء لديه.. إن حياته حافلة

بأسمى المعاني التي تدفعه إلى توظيف طاقاته إلى آخر لحظة من عمره..

وهنا عادت إليّ السائلة الأولى قائلة:

ـ المهم أنك تهربت من الإجابة.. فهل تتهربين من الاعتراف بمشاعر الحماة..؟!

قلت: ـ بل أعترف بصعوبة التجربة.. لا أكتمكن.. لقد أحسست حين ودعت ابنتي إلى عشها الجديد بالمرارة. وذكرت وصف الله تعالى لشعور أم موسى

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

[القصص].

فهربت من مشاعري إلى جلسات الإيمان والبرامج الدراسية.. ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر.. لقد أحسست يومها أن الله يمتحن الأم بمخاضين: فالمخاض الأول حين ينفصل جسم الوليد عن جسمها.. والمخاض الثاني حين ينفصل عنها نفسياً ليستقل بكيانه ويعتمد على نفسه في بناء أسرة جديدة.. وكما تفرح الأم بالميلاد الأول فإنها لو تدبرت الأمر لفرحت بالميلاد الثاني أكثر.. ولو كان مؤلماً.

وهنا التفتت إحدى الصبايا قائلة:

ـ من الجميل حقاً أنكن حتى الآن تتكلمن عن الموضوع من جانب واجبكن باعتباركن جيل الأمهات.. وأرى أنه لا بد لنا ـ نحن البنات ـ أن نواجه أنفسنا أيضاً ونعترف بأخطائنا التي تساهم في تعقيد المشكلة. إذ أن الأزمة لا تعالج إلا إذا فهمت من جميع أطرافها.. ولا ينعم البيت بالدفء حتى تسد المنافذ كلها.. فإن كان المجتمع بثقافته السلبية وقصور مؤسساته يساهم في قوقعة الحماة.. وإذا كانت الأم نفسها تغفل أحياناً عن طبيعة التضحية التي تتطلبها ضرورات النمو في الحياة.. فإننا نحن الأبناء قد جرفتنا النظرات الذاتية وانطلقنا في صلف وأنانية.. إن الواحدة منا لم تعد ترى في العالم إلا ذاتها وحقوقها.. فهي تدخل بيت الزوجية لتنتزع من حماتها كل شيء.. إدارة البيت والطهو والتربية.. بل وحتى ابنها.. !! فإذا حاولت الحماة أن تبدي بعض الملاحظات قامت الدنيا وقعدت..

إن جيلنا بتصرفاته كأنه يقول للحماة في كل حركة أو إشارة: تنحّي بعيداً فقد انتهى دورك، ونحن في غنى عن خبراتك التي لم تعد لها أية قيمة في عصرنا.. عصر العلم والتقدم.. وهو بموقفه هذا يتناقض مع خط العلم والتقدم.. لأنك لا تستطيع أن تتقدم ما لم تستفد من تجارب الماضي.. ويتناقض مع خط الدين الذي قال له

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴿٢٣﴾

[الاسراء].

(قال: أمك.. قال: أمك.. قال أمك..) لقد حدثنا رسول الله ﷺ عن الرجل الذي وصل به بره بوالديه إلى حد أنه بات ليلته يحمل اللبن منتظراً يقظتهما كراهية أن يسقي أحداً قبلهما.. وأولاده يتضاغون عند قدميه.. وأنا لا أطمع من جيلي أن يقدم مثل هذا المستوى.. ولكن هل وصل بنا الشحُّ إلى العجز عن بذل الكلمة الطيبة والاهتمام المخلص بهما..؟!

قرأت مرة عن أحد رجال الأعمال في أمريكا أنه كان قد اعتاد أن يتصل بأمه هاتفياً مرتين يومياً ـ برغم انهماكه الشديد بالعمل ـ وكانت هذه لفتة بسيطة منه يظهر بها لأمه أنه يفكر فيها ويريد أن يسعدها.. فأخجلني أن نعجز ـ نحن المسلمين ـ عن فعل ما يشبه ذلك..!!

مَن هُمُ السّفَهاء ؟

كنت في مجلس علم مع مؤمنات جامعيات نتدارس آيات من سورة النساء فوقفنا عند موضوع الحجر على السفهاء.

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ [النساء].

وانساب السؤال الذي لا بد منه قبل فهم الحكم: من هم السفهاء؟

فأجابت عدة فتيات:

- هم الصبيان والنساء.

قلت باستنكار:

- سبحان الله.. ! من أين جئتن بهذا الكلام؟!

فقلن:

- قرأناه في تفسير ابن كثير وابتلعنا غيظنا..

وعدت إلى تفسير ابن كثير رحمه الله، فإذا بقائل هذا الكلام هو ابن عباس رضي الله عنهما، حبر هذه الأمة

وتـرجمـان القـرآن . . ! وكـرره تـلاميـذه أيضـاً مجـاهـد وعكرمة . . !

وجـدتني في مـوقف حـرج لا أحسـد عليـه . . إذ أننـا نعيش في عـالم يعطي القـداسة لـلأشخاص، ويعـرف الحق بالرجال ـ خلافاً لتوجيـه عليّ (رضي الله عنـه): لا تعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف رجاله.

وتسـاءلت في نفسي: لمـاذا يلتقط المتخلف السلبيـات وينجذب إليها . . ؟

وحاولت تدارك الموقف فقلت لرفيقاتي في المجلس:

ـ لا تتسرعن في الأمر . . فقـد مر معنـا حين استعـرضنا كلام الزرقاني في (مناهل العرفان) عن التفسير بـالمأثـور أنه ذكـر من عيوب هـذا التفسير أن كثيـراً من الفرق الضـالـة ومن أعداء الإسلام قـد نسبوا إلى ابن عبـاس أقوالاً كثيـرة إمـا لتـأييـد ضـلالهم أو دسـاً عـلى الاسـلام . . فـاختلط الصحيـح بالمـدسوس ولم يتمكن المفسـرون من التحقق مـن كل ذلك . . فلعـل هذا من ذلـك . كذلـك إن ناقـل الخبر معـرض لسـوء الفهم . . وأذكـركنّ في هـذا المجـال بقصـة حـدثت لابن عباس عنـدما قـالوا لـه: قـد مشى الـركبـان بفتـواك في زواج المتعة . فقـال: ـ وماذا قـالـوا؟ فـرووا لـه شعـراً يفيد بـأنه أفتى بجـواز هذا النكـاح عـلى الإطـلاق. فقال:

ـ سبحان الله. والله ما هذا أردت.. وإنما هو مثل الميتة ولحم الخنزير عند الاضطرار..

ولا بد من العودة إلى أصل معنى الكلمة (السفهاء). فالسفه: نقص في العقل وخفة فيه. وابن كثير يقول: الحجر على أقسام: تارة للصغر وتارة للجنون وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين.. فالسفيه هو الذي يبذر ويبدد ماله فيما لا ينفعه ولا ينفع الناس.

ووجدتني آخذ زمام المبادرة فأقول لهن بحماس:

ـ فبالله عليكن.. ماذا يرى المتأمل في حياة المرأة المسلمة الحالية وأسلوبها في إنفاق المال وراء التقاليع والأثواب الغالية وأدوات الزينة... علماً بأن أكثر الشركات المنتجة لهذه البضائع يهودية..! ألم تقل الأديبة نازك الملائكة إن المرأة العربية هي التي تضرب الاقتصاد القومي لأمتها حين تمنح الشركات الأجنبية واليهودية مال الأمة مقابل زينتها..؟!

وهنا تبين لي أنني أزحت سداً أمام سيل من الاعتراضات الطريفة والجديرة بالتأمل انثال علي.. برغم دلائل الموافقة والأسف لواقع المرأة المعاصرة التي بدت على الوجوه.. فلقد بادرتني إحداهنّ قائلة:

ـ قد نعتبر إسراف المرأة في انفاقها على زينتها

سفاهة.. ولكن اللوم لا يقع على المرأة وحدها.. والرجل يدفعها إلى ذلك لا شعورياً.. إذ أن كثيرين من الرجال - وحتى المتدينين منهم - لا يريدون من المرأة إلا أن تتزين وتخدم في البيت وتطيع أوامر زوجها... وكثيراً ما تندفع المرأة في هذا الخط حفاظاً على زوجها من الفتنة بالأجنبيات والممثلات اللواتي يعرضن عليه في الرائي صباح مساء.. إنها مشكلة مجتمع كامل ينجرف في طريق الشهوات ويبدد أمواله فيها...

وقالت ثانية: - إذا كان معنى السفه هو تبديد المال فيما يضر بالفرد والمجتمع فإن أكثرية المدخنين في عالمنا الإسلامي من الرجال لا من النساء.. وهم يحرقون أموالهم وأجسامهم.. فلماذا لا يحجر عليهم؟!

وقالت ثالثة:

- إننا نرى المرأة في عالمنا تصبر على طيش زوجها.. بل وعلى انحرافاته أحياناً وراء الخمر والميسر واللهو.. خوفاً على أولادها من التشتت والضياع.. وتحاول جهدها أن توفر وتدبر في المال لتأمين حاجاتهم الضرورية.. وهو سادر في غيه.. تنسى نفسها وتؤثر مصلحة أولادها.. فهل هذه سفاهة..؟!

وقالت رابعة:

- ألم يكتب كثير من الإسلاميين المعاصرين عن ميزة

الإسلام حين أعطى للمرأة حرية الامتلاك والتصرف في المال..؟ فكيف نسلّم بأن النساء من السفهاء الذين يحجر عليهم..؟! بل إن الآية التي تسبق الحجر على السفهاء تنص على الأمر بتسليم المرأة مهرها

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ [النساء]

وتقرر حقها المطلق في التصرف فيه.. وهل يمكن للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يتبع مشورة زوجته (أم سلمة) لو كان ينظر إلى النساء بهذا المنظار؟ وهل يمكن أن توصف بذلك أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ وقد وقفت إلى جانب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين كذبه كل الناس.؟ لقد جاءها بعد أن نزل عليه الوحي خائفاً يرتعد وقد خشي على نفسه من الجنون... فهدأت من روعه وثبتته بكلماتها الفذة في هذا الموقف العصيب: (اثبت يا بن عم فوالله لن يخزيك الله أبداً).

وقالت خامسة:

- ولكن كيف نطلب من المرأة أن ترفع مستواها وترجع إلى دينها ونحن ننظر إليها بهذا الاحتقار؟! وكيف نطلب منها أن تقرأ في التفسير ومثل هذه العبارات المثبطة موجودة فيه..؟! إن تأثير الإيحاء لم يعد خافياً على أحد.. حتى أنهم يضربون مثلاً بالجدة التي قالت

لحفيدتها وقد رأتها تحمل طبقاً.. دعيه إنك ستكسرينه.. فارتبكت الفتاة ووقع الطبق من يدها وانكسر.. فكيف يرتفع مستوى المرأة إذا وصفناها بالسفاهة؟!

وتابعت إحداهن بأسى:

ـ بالله عليك هل هذا أمر يسير علينا؟! لقد نشأنا في عالم متخلف وتنفسنا ثقافة الإنحطاط منذ الطفولة.. وتلقينا من الإهانات التي تعامل بها الأنثى في عالمنا هذا ما يكفي لإطفاء جذوة الطموح في قلوبنا.. أين المرأة المسلمة؟! هل أقول إنها هناك حيث أراد لها الرجل أن تكون.. عند كل تفاهة وترهة.. في مجالس اللغو واللهو.. دمية مرصعة بالملابس والجواهر والألوان والأصباغ.. تحمل وتلد وترضع أطفالها جهالة وخمولاً.. تربي بالخرافة والدجل لأنها لا تملك شيئاً آخر تنفقه.. وكل إناء بما فيه ينضح.. ألا تشعرين معي أن الرجل قد كلف بالقوامة وهي مسؤولية وحسن توجيه ورعاية.. فأساء استخدامها زمناً طويلاً حتى أصبحت أغلالاً وآصاراً تسحق كل بادرة خير فينا..؟!

قلت:

ـ ولكن ظهرت كتابات جديدة.. وعقدت ندوات كثيرة دافعت عن مكانة المرأة ونادت برفع الأغلال عنها..

فقالت:

ـ وهل يكفي الدفاع بالكلام وحده أمام تيار الثقافة المتدفق..؟! كيف تكفي الدفاعات والمرافعات في تغيير نفسية المرأة التي تُستقبل عند ولادتها بالامتعاض.. ويميز عليها الذكر في المعاملة طيلة حياتها..؟ وينظر إلى تعليمها على أنه من الكماليات.. ويستخف بها إن حاولت متابعة الأحداث العالمية والسؤال عنها..؟! ومناقشة الأفكار والكتابة فيها...؟!

لنكن واقعيين.. هل خصص الرجل المؤمن لزوجته وبناته وقتاً يومياً يتدارس معهن فيه ويناقشهن في الأفكار وما يجد من قضايا ليأخذ بأيديهن ويرفع مستواهنّ؟! لقد وُصِف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه يكون مع أهله في مهنتهم.. وأنه كان يرقع ثوبه بيده.. **فهل يحاول المؤمن المعاصر** دعم زوجته ومساعدتها كي تفرغ شيئاً من وقتها للقراءة وإصلاح النفس أو المشاركة في عمل اجتماعي؟!.. لتحضر مجلس علم أو تقدم بحثاً؟!

في عالمنا المعاصر تدفع المرأة إلى التفلت والفساد ويوحى إليها أن الدين يظلمها ويحرمها من الكرامة والحرية.. وتسخّر لذلك كتابات ومؤلفات.. بل وسائل إعلام على مستوى العصر.. بكل ما تملك من فتنة واستهواء مستعينة على إقناعها بكل أخطاء الرجل المسلم

النابعة من سوء الفهم للنصوص الشرعية.. فإذا نجت المرأة من كل ذلك ـ وقل أن تنجو ـ وعادت إلى دينها.. واجهتها عقبات ومعوقات ثقافية عجيبة.. في تحصيل العلم وفي السلوك الإجتماعي بل وفي أداء العبادات.. تدخلت أخرى مؤيدة كلام صاحبتها فقالت:

ـ لن أنسى في هذا المجال ما قالته لي إحدى المؤمنات: كنت في جاهليتي تفتح لي النوادي والمسابح على مصراعيها.. ويغرونني بتصدر المجالس فيها.. فلما هداني الله قصدت المساجد للعبادة وطلب العلم فنهرت عنها.. ولم أجد لي مكاناً فيها..! حتى الحرم زُجرتُ فيه.. وتعوذ بعضهم بالله من النساء وهو ينظر إليّ شزراً وكأنني شيطان دنس لأنني أردت أن أصلي خلف مقام إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) ولولا علمي بأن الإسلام غير المسلمين لانتكست وتهت من جديد..

ولقد تساءلت في نفسي: ألم يكن بإمكان الأساتذة الكرام الذين تولوا تحقيق تفسير ابن كثير واختصاره أن يراعوا هذا الجانب فيحذفوا مثل هذه العبارات أو يعلقوا عليها في الهامش بكلمات تداوي بعض الجراح..؟! إذ أننا ـ برغم ظهور تفاسير عدة على مستوى جيد في العرض ـ لا نستطيع الاستغناء عن ابن كثير كمرجع قيم في التفسير لا بد منه للشباب المسلم الذي يسعى إلى تدبر قرآنه..

وبعد.. فذاك حوار أحببت أن أعرضه أمام الجميع ليساهم الرجال والنساء في فهم هذه المشكلة وحلها.. وبرغم كل ما قيل حتى الآن في قضية المرأة وحقوقها.. فإن هذا الواقع المزري الذي نعاني منه لن يتغير يا أختي المؤمنة حتى تبدئي من نفسك وتؤدي واجبك... فتبرزين الصورة الحقيقية للمرأة المؤمنة. التي تفرض احترامها على المجتمع.. لقد وجهنا اللوم إلى الرجال بما فيه الكفاية.. وذاك كلام يرضي ويخدر نفوسنا ويعفينا من كل تبعة.. وما أسهل الحديث عن الحقوق والمطالبة بها.. ولكن هل تحل المشكلة بهذا الأسلوب؟! وهل هناك إنسان يحصل على حقوقه قبل أن يؤدي واجبه؟!

إن أداء الواجب هو الذي يصنع الحقوق.. ولقد قامت الصحابية بواجبها وارتفعت إلى مستوى المسؤولية وضحّت بكل ما تملك من أجل بناء مجتمع رباني ولم تقف لتطالب بحقوقها.. بل جاءتها الحقوق كثمار ونتائج.

كيف تطمعين يا أختي بنيل الاحترام والدعم.. وأنت حتى الآن تلهثين وراء التفاهات.. وتخوضين المتاهات.. لاهمَّ لك إلا تتبع الأزياء والتقاليع والتفنن في ألوان الطعام.. والتباهي بالمظاهر والأشكال في الحفلات والمجالس الفارغة..؟!

سمعت مرة أن رجلاً فكر بالتبرع بمبلغ لينفق في وجوه

الخير. . وكان قد سمع أن الإنسان إذا فكر بخير جاءه خمسون شيطاناً وكل واحد يدلي بحجته. . فقال: تغلبت على خمسين شيطاناً وانتصرت عليهم. فلما رجعت إلى البيت. قالت الزوجة: الأولاد بحاجة. . ويلزمنا كذا وكذا. . والإنفاق على العيال أكثر ثواباً. . فغلبتني المرأة. . !

أين أنت يا أختي من الدور الجليل الذي قامت به الصحابية في الدفع والتحريض على الخير. . ؟! أين أنت من أم سليم التي كان مهرها إسلام أبي طلحة. . ومن أم أيوب التي آثرت ضيفها على نفسها وأولادها. . ومن أم المؤمنين عائشة التي كانت تنفق كل ما يأتيها وتنسى أن تحتفظ بطعام لإفطارها. . ؟!

أي أختي المؤمنة. . لا تهملي نفسك. . ولا تحتقري جهدك. . فالميدان بحاجة إليك. . ودورك لا يستطيع أحد أن يقوم به عنك. .

وإن تغيير الصورة لا يتم إلا بعد انقلاب جذري في المفاهيم. .

۞ . . . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾

[الرعد].

الفهرس

المقدمة ٥
الشمس والريح ٧
من ذكريات الحج ٢٣
عصفور من دمشق ٣٥
حوار عن حماة ٤٧
من هم السفهاء؟ ٥٧
الفهرس ٦٧

بقلم الكاتبة

١ ـ أضواء على سورة يسٓ.

٢ ـ من هدي سورة لقمان.

٣ ـ من هدي سورة النساء.

٤ ـ من أخبار الصحابيات.

أ ـ سمية بنت خياط.

ب ـ أم سليم بنت ملحان.

جـ ـ أم حكيم بنت الحارث.

٥ ـ ميلاد جديد ـ مجموعة قصصية.